تفسير سورة الكهف

فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ

الجزء الرابع

﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾

(وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ) التلاوة: هي الاتباع، أي: اتبع ما أوحى الله إليك بمعرفة معانيه وفهمها، وتصديق أخباره، وامتثال أوامره ونواهيه. السعدي

(وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ) واتل -أيها الرسول- ما أوحاه الله إليك من القرآن. التفسير الميسر

والأمر في قوله [وَاتْلُ] شامل للتلاوة بمعنى القراءة، وبمعنى الاتباع.

كما قال تعالى (اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ..)45العنكبوت.

وقال تعالى (وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ) (92) النمل.

❶الأمر بتلاوة القرآن، وقد جاءت الأحاديث بالأمر بذلك.

قال ﷺ (اقْرَؤُوا القُرْآنَ فإنَّه يَأْتِي يَومَ القِيامَةِ شَفِيعًا لأَصْحابِهِ) صحيح مسلم.

جعل الله تعالى القرآن الكريم شفيعا لأصحابه يوم القيامة، فعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال (الصيامُ والقرآنُ يشفعانِ للعبدِ يومَ القيامةِ، يقولُ الصيامُ: أيْ ربِّ إنِّي منعتُه الطعامَ والشهواتِ بالنهارِ فشفعْنِي فيهِ، يقولُ القرآنُ ربِّ منعتُهُ النومَ باللیلِ فشفعْنِي فيهِ، فيُشَفَّعَانِ) الجامع الصغير

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال (يَجيءُ القرآنُ يومَ القيامةِ فيَقولُ: يا ربِّ حلِّهِ، فَيلبسُ تاجَ الكَرامةِ، ثمَّ يقولُ: يا رَبِّ زِدهُ، فيلبسُ حلَّةَ الكرامةِ، ثمَّ يقولُ: يا ربِّ ارضَ عنهُ، فيقالُ لَهُ: اقرأْ وارْقَ، وتزادُ بِكُلِّ آيةٍ حسنةً) صحيح الترمذي

يقول الرسول ﷺ (يُقالُ لصاحِبِ القرآنِ اقرأ وارتَقِ ورتِّل كما كنتَ ترتِّلُ في الدُّنيا فإنَّ منزلَكَ عندَ آخرِ آيةٍ تقرؤُها) صحيح أبي داود

عن عائشة قالت " عددُ درجِ الجنةِ عددُ آيِ القرآنِ، فمنْ دخلَ الجنةَ منْ أهلِ القرآنِ فليسَ فوقَه درجةٌ" الجامع الصغير

❷الحث على اتباع القرآن والعمل به.

كما قال تعالى (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) (24) محمد.

وقال تعالى (كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) (29) ص.

❸عظم مكانة هذا القرآن العظيم.

(لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ) أي: لا تغير ولا تبدل لصدقها وعدلها، وبلوغها من الحسن فوق كل غاية (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً) فلتمامها، استحال عليها التغيير والتبديل، فلو كانت ناقصة، لعرض لها ذلك أو شيء منه، وفي هذا تعظيم للقرآن، في ضمنه الترغيب على الإقبال عليه. السعدي

⇦صدقاً: في الأخبار، وعدلاً: في الأحكام.

(وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا) أي: لن تجد من دون ربك، ملجأ تلجأ إليه، ولا معاذا تعوذ به، فإذا تعين أنه وحده الملجأ في كل الأمور، تعين أن يكون هو المألوه المرغوب إليه، في السراء والضراء، المفتقر إليه في جميع الأحوال، المسئول في جميع المطالب. السعدي

قال الشوكاني: قال الزجاج: أَنَّكَ إِنْ لَمْ تَتْبَعِ الْقُرْآنَ وَتَتْلُهُ وتَعْمَلْ بِأَحْكامِهِ لَنْ تَجِدَ مَعْدِلًا تَعْدِلُ إِلَيْهِ ومَكانًا تَمِيلُ إِلَيْهِ، وهَذِهِ الآيَةُ آخِرُ قِصَّةِ أَهْلِ الكَهْفِ.

كما قال تعالى (قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (22) الجن.

⇦وجوب الالتجاء والاعتصام بالله، من لم يعتصم بالله ويلتجئ إليه فلن يجد من ينصره ويحميه.

الالتجاء والاعتصام بالله بلزوم أحكامه وأوامره، فيحميك الله، فلا يعرضك لغضبه وعذابه، (مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ).

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾.

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) أي: واحبِسْ نفسَك -يا مُحَمَّدُ- مع أصحابِك الذين يَعبُدونَ رَبَّهم أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَه، ويَدْعونَه ويَذكُرونَه مُخلِصينَ له في ذلك. موسوعة التفسير

(يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) أَيْ: يَبْتَغُونَ بِذَلِكَ الْعَمَلِ وَجْهَ اللَّهِ الْكَرِيمَ، فَهُمْ مُخْلِصُونَ فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ وَالطَّاعَاتِ. موسوعة التفسير

قال السعدي: فوصفهم بالعبادة والإخلاص فيها، ففيها الأمر بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس على صحبتهم، ومخالطتهم وإن كانوا فقراء فإن في صحبتهم من الفوائد، ما لا يحصى. السعدي

وقال الشنقيطي: وقد نزلت هذه الآية الكريمة في فقراء المهاجرين كعمار، وصهيب، وبلال وابن مسعود ونحوهم لما أراد صناديد الكفار من النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أن يطردهم عنه ويجالسهم بدون حضور أولئك الفقراء المؤمنين وقد قدمنا في سورة الأنعام أن الله كما أمره هنا بأن يصبر نفسه معهم أمره بألا يطردهم، وأنه إذا رآهم يسلم عليهم وذلك في قوله:(وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ) – إلى قوله – (وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ).

وقال بعض السلف: لا ينال العلم حيي ولا مستكبر، فيعاقبوا بعدم فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمة الله وشريعه، لان قلوبهم تكبرت على طاعة الله، وكذلك تكبروا على الناس بغير حق، فلما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالضلال، قال تعالى (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ... (146) الأعراف

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ)

استحباب ذِكْر الله، والدعاء طَرَفَيْ النهار، أوله وآخره، وهذ توجيه رباني بحاجة الروح الى غذاء سماوي، يحميها من الغفلة، صباحا مساء، لا تبتعد عن الله وتحصن بالله، كي لا يتمكن الشيطان منك في ساعة غفلة، فيرديك.

(بِالْغَدَاةِ) أول النهار (وَالْعَشِيِّ) آخره.

قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: 39]، وعن أنسٍ – رضي الله عنه –: أنَّ النبيَّ – ﷺ – قال: (لأَنْ أَقْعُدَ مع قومٍ يذكرون الله من صلاة الغَدَاة حتى تطلع الشمس – أحبُّ إليَّ من أن أعتق أربعةً من وَلَد إسماعيل، ولأن أجلس مع قومٍ يذكرون الله من صلاة العصر حتى تغرب الشمس – أحبُّ إليَّ من أن أعتق أربعةً). الترميذي

وفيه درس عظيم: أن الإنسان بحاجة إلى التذكير وإن كان قوياً فالمصباح مع المصباح أكثر إنارة للطريق والمصباح الواحد قد تضعف إنارته في أي لحظة ولو كان قوياً، والحذر الحذر فقد يغتر الإنسان ويشعر بأنه لا حاجة له في التذكير أو يعتقد أنه لن يغفل معتمداً على نفسه وعلى ما معه من العلم، بل كل أحد يحتاج إلى التنبيه مهما بلغ إيمانه، فذلك التزود في السير إلى الله والدار الآخرة يكون بمجالسة الصالحين.

(وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أي: ولا تَصرِفْ عينَيك –يا مُحَمَّدُ– عن الذين يَعبُدونَ رَبَّهم بالغَداةِ والعَشيِّ؛ لرثاثةِ هيئتِهم وزِيِّهم، مُحتَقِرًا لهم، فتتجاوزَهم إلى أهلِ الشَّرَفِ والجاهِ، والغنَى والثروةِ، طامحًا إلى مُجالَستِهم بدلًا مِن أولئك. موسوعة التفسير

كقوله تعالى (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ) (131) طه.

(تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) فإن هذا ضار غير نافع، وقاطع عن المصالح الدينية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب بالدنيا، فتصير الأفكار والهواجس فيها، وتزول من القلب الرغبة في الآخرة، فإن زينة الدنيا تروق للناظر، وتسحر العقل، فيغفل القلب عن ذكر الله، ويقبل على اللذات والشهوات، فيضيع وقته، وينفرط أمره، فيخسر الخسارة الأبدية، والندامة السرمدية، ولهذا قال

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا) غفل عن الله، فعاقبه بأن أغفله عن ذكره. السعدي

التحذير من النظر إلى الدنيا وأهلها:

قال تعالى (فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) (29) النجم.

1–أن زينة الحياة الدنيا زينة زائلة فانية.

كما قال تعالى (وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (17) الأعلى.

وقال تعالى (وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (4) الضحى.

2–التحذير من زينة الحياة الدنيا وأنها فتنة عظيمة.

كما قال ﷺ (اتقوا الدنيا...) رواه مسلم.

وقال ﷺ (فَوَاللهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عليكُمْ ولكنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ الدّنْيا عليكُمْ كما بُسِطَتْ على مَنْ كانَ قبلَكُم فَتَنافَسُوها كَما تَنافَسُوها فتُهْلِكَكُمْ كما أهلَكَتْهُم) متفق عليه.

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا) أَيْ: شُغِلَ عَنِ الدِّينِ وَعِبَادَةِ رَبِّهِ بِالدُّنْيَا. ابن كثير

(وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) أَيْ: أَعْمَالُهُ وَأَفْعَالُهُ سَفَهٌ وَتَفْرِيطٌ وَضَيَاعٌ، وَلَا تَكُنْ مُطِيعًا لَهُ وَلَا مُحِبًّا لِطَرِيقَتِهِ، وَلَا تَغْبِطْهُ بِمَا هُوَ فِيهِ. ابن كثير

(وَاتَّبَعَ هَوَاهُ) أي: وآثَرَ اتِّباعَ شَهواتِ نَفسِه، فاختار الكُفرَ والشِّركَ والمعاصيَ على الإيمانِ والتَّوحيدِ والطَّاعةِ. موسوعة التفسير

(وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (53) يوسف

وسمي الهوى هوى لأنه يهوي بصاحبه.

قال ﷺ (ثلاثٌ مُهلِكاتٌ: شُحٌّ مُطاعٌ، وهوًى مُتَّبَعٌ، وإعجابُ المرءِ بنفسِه) السلسلة الصحيحة.

دلّ ذلك على أنّ شرّ أحوال الإنسان أن يكون خالياً عن ذكر الحقّ، ويكون مملوءاً من الهوى الداعي إلى الاشتغال بالدنيا، ونفسك ان لم تشغلها بالحق، شغلتك بالباطل، ذكر الله نور وذكر غيره ظلمة.

قال السعدي: فهذا قد نهى الله عن طاعته (أي الذي اتَّبَعَ هَوَاهُ) ، لأن طاعته تدعو إلى الاقتداء به، ولأنه لا يدعو إلا لما هو متصف به، ودلت الآية، على أن الذي ينبغي أن يطاع، ويكون إماما للناس، من امتلأ قلبه بمحبة الله، وفاض ذلك على لسانه، فلهج بذكر الله، واتبع مراضي ربه، فقدمها على هواه، فحفظ بذلك ما حفظ من وقته، وصلحت أحواله، واستقامت أفعاله، ودعا الناس إلى ما من الله به عليه، فحقيق بذلك، أن يتبع ويجعل إماما، والصبر المذكور في هذه الآية، هو الصبر على طاعة الله، الذي هو أعلى أنواع الصبر، وبتمامه تتم باقي الأقسام.

حذر القرآن من الغفلة أشد التحذير:

أولاً: جعل أهلها حطب جهنم وأضل من الأنعام.

قال تعالى (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (179) الأعرف.

ثانياً: عدم طاعة الغافل.

قال تعالى (وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) (28) الكهف.

ثالثاً: إدانة من يهتم بالدنيا دون الآخرة وهم الغافلون.

قال تعالى (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) (7) الروم.

رابعاً: التحذير من أن يكون من الغافلين.

قال تعالى (...وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ) (205) الأعراف.

احرص على قلبك أن يكون مشغولاً بذكر الله تعالى وحيّاً بهذا الذّكر، فإيّاك أن تكون من أصحاب القلوب الغافلة الميتة الّتي لا حياة فيها، ونتيجة غفلتها، فرّطت في جنب الله، فتعدَّت على حقوقه وعلى حقوق الناس وخسرت وخابت.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾.

(وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ) أي: قل للناس يا محمد: هو الحق من ربكم أي: قد تبين الهدى من الضلال، والرشد من الغي، وصفات أهل السعادة، وصفات أهل الشقاوة، وذلك بما بينه الله على لسان رسوله، فإذا بان واتضح، ولم يبق فيه شبهة. السعدي

وجوب اتباع أوامر القرآن واجتناب نواهيه، لأنه حق، فكل ما فيه حق، كما قال تعالى (إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (9) الإسراء.

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) أي: لم يبق إلا سلوك أحد الطريقين، بحسب توفيق العبد، وعدم توفيقه، وقد أعطاه الله مشيئة بها يقدر على الإيمان والكفر، والخير والشر، فمن آمن فقد وفق للصواب، ومن كفر فقد قامت عليه الحجة، وليس بمكره على الإيمان، كما قال تعالى {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}وليس في قوله:(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) الإذن في كلا الأمرين، وإنما ذلك تهديد ووعيد لمن اختار الكفر بعد البيان التام، كما ليس فيها ترك قتال الكافرين. السعدي

قال الشنقيطي: وهذا أصرح دليل على أن المراد التهديد والتخويف، إذ لو كان المراد التخيير على بابه لما توعد أحد الطرفين المخير بينهما بهذا العذاب الأليم.

⇦ثم ذكر تعالى مآل الفريقين

(إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ) بالكفر والفسوق والعصيان. السعدي

(نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا) أي: سورها المحيط بها، فليس لهم منفذ ولا طريق ولا مخلص منها، تصلاهم النار الحامية. السعدي

(وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا) أي: يطلبوا الشراب، ليطفئ ما نزل بهم من العطش الشديد. السعدي

(يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ) أي: كالرصاص المذاب، أو كعكر الزيت، من شدة حرارته. السعدي

كما قال تعالى (وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (15) محمد.

(يَشْوِي الْوُجُوهَ) أي: فكيف بالأمعاء والبطون، كما قال تعالى {يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ} السعدي

قال ابن كثير: أَيْ: مِنْ حَرِّهِ، إِذَا أَرَادَ الْكَافِرُ أَنْ يَشْرَبَهُ وقَرّبه مِنْ وَجْهِهِ، شَوَاهُ حَتَّى يَسْقُطَ جِلْدُ وَجْهِهِ فِيهِ.

(بِئْسَ الشَّرَابُ) الذي يراد ليطفئ العطش، ويدفع بعض العذاب، فيكون زيادة في عذابهم، وشدة عقابهم. السعدي

(وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا) وهذا ذم لحالة النار، أنها ساءت المحل، الذي يرتفق به، فإنها ليست فيها ارتفاق، وإنما فيها العذاب العظيم الشاق، الذي لا يفتر عنهم ساعة، وهم فيه مبلسون قد أيسوا من كل خير، ونسيهم الرحيم في العذاب (ليس ذهول عنهم بل ترك لهم)، كما نسوه. السعدي

قال ابن كثير: **وَسَاءَتْ**: أَيْ: وَسَاءَتِ النَّارُ مَنْزِلًا ومَقِيلا وَمُجْتَمَعًا وَمَوْضِعًا لِلِارْتِفَاقِ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الْفُرْقَانِ:٦٦]

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾

⇦قال السعدي: ثم ذكر الفريق الثاني

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) أي: جمعوا بين الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وعمل الصالحات من الواجبات والمستحبات. السعدي

قال ابن كثير: لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ الْأَشْقِيَاءِ، ثَنَّى بِذِكْرِ السُّعَدَاءِ، الَّذِينَ آمَنُوا بالله وصدقوا المرسلين فيما جاؤوا بِهِ، وَعَمِلُوا بِمَا أَمَرُوهُمْ بِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، فَلَهُمْ ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ وَالْعَدْنُ: الْإِقَامَةُ.

(إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا) وإحسان العمل: أن يريد العبد العمل لوجه الله، متبعا في ذلك شرع الله. فهذا العمل لا يضيعه الله، ولا شيئا منه، بل يحفظه للعاملين، ويوفيهم من الأجر، بحسب عملهم وفضله وإحسانه. السعدي

قال الشنقيطي: أن من عمل صالحا وأحسن في عمله أنه جل وعلا لا يضيع أجره، أي: جزاء عمله: بل يجازى بعمله الحسن الجزاء الأوفى كما قال تعالى (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ) ال عمران.

قال ابن عثيمين: ولم يقل [إنا لا نضيع أجرهم] لبيان العلة في ثواب هؤلاء وهو أنهم أحسنوا العمل.

⇦وإحسان العمل يكون بأمرين: بالإخلاص، وبالمتابعة للرسول صلى الله عليه وسلم.

وهذا يدل على أهمية الإحسان في العمل وقال تعالى (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ) ولم يقل أكثركم عملاً، على المسلم أن يهتم بإحسان العمل أكثر من كثرته ومنظره.

﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۚ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾

(أُوْلَئِكَ) أولئك الموصوفون بالإيمان والعمل الصالح. السعدي

(لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ) لهم الجنات العاليات التي قد كثرت أشجارها، فأجنت من فيها. السعدي

وَالْعَدْنُ: الْإِقَامَةُ. ابن كثير

⇦جَنَّاتُ عَدْنٍ أي جنات إقامة، يقال: عَدَنَ بالمكان: أي أقام به. لسان العرب

قال الشنقيطي: فهو مكان إقامة لا رحيل بعدها ولا تحول.

والجنة في اللغة: البستان كثير الأشجار.

⇦الجنة شرعاً: الدار التي جهّزها الله في الآخرة للمُتّقين من عباده، وتأتي بمعنى دار الكرامة التي أعدّها الله لأوليائه الصالحين يوم القيامة. الشنقيطي

⇦هي الدار التي أعدها الله لأوليائه المتقين، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فينتظر المؤمن جنات في جنة قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسًا -رضي الله عنه- يَقُولُ: أُصِيبَ حَارِثَةُ يَوْمَ بَدْرٍ وَهْوَ غُلَامٌ فَجَاءَتْ أُمُّهُ إِلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ عَرَفْتَ مَنْزِلَةَ حَارِثَةَ مِنِّي فَإِنْ يَكُنْ فِي الْجَنَّةِ أَصْبِرْ وَأَحْتَسِبْ وَإِنْ تَكُ الأُخْرَى تَرَى مَا أَصْنَعُ؟ فَقَالَ: «وَيْحَكِ أَوَ هَبِلْتِ؟ أَوَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ؟ إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ وَإِنَّهُ فِي جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ». البخاري

(تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ) وكثرت أنهارها، فصارت تجري من تحت تلك الأشجار الأنيقة، والمنازل الرفيعة. السعدي

قال ابن كثير: أَيْ: مِنْ تَحْتِ غُرَفِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ.

وهذه الأنهار بينها الله بقوله (مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ...)15محمد.

(يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ) وحليتهم فيها الذهب. السعدي

قال ابن كثير: ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ أَيْ: مِنَ الْحِلْيَةِ ﴿فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ وَقَالَ فِي الْمَكَانِ الْآخَرِ: ﴿وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الْحَجِّ:٢٣]. وَفَصَّلَهُ هَاهُنَا (أي اللباس).

(وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ) ولباسهم فيها الحرير الأخضر من السندس، وهو الغليظ من الديباج، والإستبرق، وهو ما رق منه. السعدي

سُنْدُسٍ: ما رق من الديباج، وَإِسْتَبْرَقٍ: ما غلظ منه.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "طوبى شجرةٌ في الجنَّةِ، مسيرةُ مائةِ عامٍ، ثيابُ أهلِ الجنةِ تخرجُ مِنْ أكْمامِها "الجامع الصغير

(مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ) متكئين فيها على الأرائك، وهي السرر المزينة، المجملة بالثياب الفاخرة فإنها لا تسمى أريكة حتى تكون كذلك، وفي اتكائهم على الأرائك، ما يدل على كمال الراحة، وزوال النصب والتعب، وكون الخدم يسعون عليهم بما يشتهون، وتمام ذلك الخلود الدائم والإقامة الأبدي فهذه الدار الجليلة. السعدي

(نِعْمَ الثَّوَابُ) للعاملين

(وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً) أَيْ: نِعْمَتِ الْجَنَّةُ ثَوَابًا عَلَى أَعْمَالِهِمْ، حَسُنَتْ مَنْزِلًا وَمَقِيلًا وَمَقَامًا، بخلاف النار (وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا). ابن كثير

قال السعدي: يرتفقون بها، ويتمتعون بما فيها، مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، من الحبرة والسرور، والفرح الدائم، واللذات المتواترة، والنعم المتوافرة، وأي مرتفق أحسن من دار، أدنى أهلها، يسير في ملكه ونعيمه وقصوره وبساتينه ألفي سنة، ولا يرى فوق

ما هو فيه من النعيم، قد أعطى جميع أمانيه ومطالبه، وزيد من المطالب، ما قصرت عنه الأماني، ومع ذلك، فنعيمهم على الدوام متزايد في أوصافه وحسنه، فنسأل الله الكريم، أن لا يحرمنا خير ما عنده من الإحسان، بشر ما عندنا من التقصير والعصيان.

⇦ودلت الآية الكريمة وما أشبهها، على أن الحلية، عامة للذكور والإناث، كما ورد في الأحاديث الصحيحة لأنه أطلقها في قوله {يُحَلَّوْنَ} وكذلك الحرير ونحوه. السعدي